الفصل الرابع

السعي نحو قيم الحياة

الفصل الرابع
السعي نحو قيم الحياة

وضعنا فيما مضى سلسلة من الانتفاضات والأشكال المميزة التي يكتسبها الجسم والقلب والأنا والذكاء أثناءها. ولكن ما هدف كل هذه الانتفاضات؟ وماذا يوفر للشخصية التي تتعرض لها قيمتها وعمقها؟ هذا ما سنراه من دراستنا لقيم الحياة التي تدفع الشباب- اوعلى الأقل الأخيار منهم- نحو الرفعة.

مبدأ القيمة: يسمى "قيمة" في علم النفس كل ما يحقق الإشباع لحاجة من حاجاتنا سواء كان ذلك شيء أو كائن أو حدث أو فكرة. والقيمة ليست إلا إحساساً بالثمن الذي يقدر لشيء ما، ولذلك كانت القيمة ذاتية، وقد لا تتفق والترجمة الاجتماعية المألوفة للقيمة التجارية لإنتاج أو عمل معينين.

اكتشاف المراهق للقيم: ينشط مبدأ القيمة منذ وقت مبكر جداً عند الطفل، ولكنه لا ينفصل عن موضوعه ويكون الوجه الآخر للرغبة. وفي حوالي سن الخامسة عشرة، يتسع مجاله وتزداد قوته فجأة، فيصير المراهق أكثر حساسية نحو الثمن الذي يعول عليه من وراء الأفعال والمواقف التي تتفق واهتماماته وأهدافه. وهكذا لم تعد تحية الصباح

التي يلقى بها إلى شخص ما مجرد عادة، بل تكتسب قيمة، وكذلك يكون توقيعه باسمه. ولا يرد هذا لمجرد الحركة العاطفية، بل الأفكار ومبادئ يرى المراهق أنها حقيقية، ففي تصور الشباب للعالم، يقوم عالم للقيم إلى جوار عالم المعرفة، ويسهم كثيراً في تحديد أفكارهم وتنظيم سلوكهم.

ولا حصر لهذه القيم، فهي اقتصادية وسياسية واجتماعية وأخلاقية وجمالية ودينية إلخ.. ولا تكتشف عادة دفعة واحدة، وبالتالي لا تظهر بملامح القيم الكلاسيكية التي تتحدث عنها الفلسفة مثل الحق والجمال والخير: ويراها المراهق في أول الأمر مختلطة، غير محددة، متضارعة فيما بينها، ويعثر عليها من خلال قراءاته في الشخصيات الحقيقية أو الخيالية التي تتمثل فيها هذه القيم، وهكذا يعتبر رودريج[1] والمشرف العائلي ليسا إلا شيئاً واحداً، كما يتجسد الفن في شخص مشيل إنجلو، وقد يحدث ألا يتخطى المراهق هذه المرحلة، ولكن لدى من يفكر ويدرس من المراهقين، سرعان ما تتلخص القيم من هذه الشخصيات وتأخذ شكلاً مجرداً يصير مبدأ للعمل.

ويمتزج اكتشاف القيم في الواقع باكتشاف الثقافة ، إذ تتمثل كل حضارة في جهاز من القيم ينظم حياة الجسم الاجتماعي في وقت معين، وبذلك تكون إحدى المهام التي تلقى على عاتق المدرسة- كما رأينا- نقل هذه الثقافة إلى الشباب لتمكينهم من الاشتراك في حياة الجماعة

(1) بطل التراجيديا الكلاسيكية المعروفة "السيد" للكاتب الفرنسي الكبير كورني.

وتقاليدها. ولكن ليس على الجماعة إلا التمهيد لعمل الفرد، فهو الذي يختار إلى حد ما القيم من بين ما يعرض عليه منها، وتنتظم هذه القيم بداخله بطريقة شعورية أو غير شعورية في تسلسل يعكسه سلوكه، وبداخله أيضاً يتحقق التوافق بين القيم التي يسمح بها المجتمع الذي يعيش فيه المراهق، وتلك التي تعبر عن ميوله الخاصة.

إن ما يثير اهتمام الشباب قبل كل شيء، هو الحياة، حياتهم الخاصة التي يشعرون أنها قد وصلت إلى نقطة حاسمة مثل حياة الآخرين، وكذلك الحياة عامة، فهي تجذبهم وتسحرهم. وفي هذه اللحظة ، يصبحون أكثر إحساساً بالجانب الديناميكي للأشياء، وكذلك بنموهم، ويكتسبون الإحساس بالزمن وبالتغيير، وهذه أفكار يصعب على الطفل فهمها. وفي مقابل هذا، تظهر فكرة الموت وتصير أكثر إلحاحاً، وتبدو لهم الطبيعة ككائن حي يتحدون معه اتحاداً عاطفياً، وبذلك تكون القيم التي يحبونها هي ايضاً قيم الحياة ، وهي القيم التي تستطيع إشراكهم تماماً في الديناميكية العامة.

ويعطى كل شاب ، حسب طبيعته، المكان الأول لإحدى عائلات يتمناها المراهق لنفسه على جهاز القيم الذي يعمل بداخله والذي يتيح له أن يعد "خطة حياته" فبالنسبة للشاب العملي الذي يهمه النجاح والكسب تتفوق القيم الاقتصادية، بينما تظهر عند الآخرين قيم اجتماعية، وخاصة ذات طابع عائلي، كتلك التي تلاحظ كثيراً عند الشابات. ويلاحظ أيضاً أنه بمجيء سن النضوج، يزداد الاهتمام كثيراً بكل ما هو نقص. أما أثناء

المراهقة، فإن الاختيار لم يكن قد تم بعد، كما أن الفرد لم يكن قد أحسن بعد بإلحاح القيم المادية، وهكذا يكون "مهيأ" وكذلك قادراً على "إنكار الذات" ، وهذان الشرطان يوضحان المكان المرموق الذي تشغله في ذهنه القيم الروحية، وهي قيم جمالية وأخلاقية وفلسفية ودينية بقدر ما يسمح له وقته بالاهتمام بها.

أولوية القيم الجمالية: إن الشباب- كما يقول رودان هم "خدام في محراب الجمال" ويقدمون اليم الجمالية على كل شيء، لذا يؤدي حب الجمال - وبخاصة عند بعض الشابات- إلى عبادة حقيقية للجسم أو للفن.

ولا شك أن تفضيل كل ما هو جميل يرتبط بالنمو البيولوجي، وخاصة بانتفاضة الحياة الجنسية ، وليس حب التزين والزينة وكل جميل يجذب النظر إلا مكملاً لعمل الطبيعة التي تعطى، قرب نهاية المراهقة، للبشرة وللنظرة ولأشكال جسم الفتاة جمالاً متجدداً لا يباري، ولا يسعنا إزاء ذلك إلا التفكير في التفتح الذي يشاهد في عدد كبير من الأنواع الحيوانية عند ظهور النضج الجنسي والذي يمتاز في الطيور بالتغريد واكتساب الريش للألوان الزاهية. وحتى إذا ما استبعدنا هذا التشابه الذي قد يثير الجدل، نجد أن الفن هو أكثر نشاطات الفكر الكبرى اتصالاً.

ولا يعشق الجمال فقط في الأجسام والأعمال الفنية والمناظر الطبيعية، بل وفي المجالات التي يلغى منها عادة في سن النضوج، مثلما في مجالات المعرفة والعمل. وهكذا لا يظل الشباب جامداً أمام الحركة

الجميلة أو حتى إزاء العرض الجميل، فالشباب لا يتفهم الأخلاق أو الحقيقة بعيداً عن الجمال.

وهكذا تبدو أولوية القيم الجمالية مرتبطة بمرحلة من مراحل التطور، وهذا نجد صداه، حتى في الطبائع التي تخلو من الشاعرية والنبل وقد تؤدي- إذا ما بلغت حد التطرف- إلى خلق عقلية تحب الفن وتعجب بكل ما هو جميل. ولكن ما أن يستند هذا الإحساس بالجمال استعداد حقيقي حتى تزدهر أعمال الشباب التي تتيح للفنان- ولو أنها لا تبلغ مستوى التحفة الفنية من النضج- فرحة الكشف عن موضوعات أساسية لإلهامه من خلال التألق المثالي لذاته.

المثالية الأخلاقية: أود، وأنا أتقدم من مجال القيم الأخلاقية ، أن أقضى أولا على وهم شائع: فإن السعي إلى هذه القيم لا يعني أن للشباب سلوكاً يصلح كقدوة ، بل يعنى أنهم يصبحون فقط أكثر إحساساً بالرغبة في الخير. ومع قدرتهم منذ الآن على إقامة حياة أخلاقية شخصية، فأنهم يقدرون أيضاً على الفساد والفجور. وقليلاً ما نتحدث عن الجريمة عند الأطفال، بينما توجد الجريمة عند الأطفال، بينما توجد الجريمة بين المراهقين، ومن دراسة برت G, Burt و هيلي W. Healy لصغار المنحرفين من الشباب، يبدو لنا صعوبة مراسهم، فكلما زادت القوة الفردية، زاد انتزاعها لعادات الطفولة الواحدة بعد الأخرى، وتتمكن الاتجاهات الشريرة من الظهور، وتجد منفذاً لها في "الفساد" الذي يسمى "بالجنون الخلقي" وفيه يفعل الشخص الشر لما يحس به عندئذ من

سرور. ودون أن نبلغ حد المرض النفسي، كم من مرات دهشنا فيها من سلوك الشباب بما فيه من أنانية وخشونة ووقاحة حقيقية أو مصطنعة وحب ارتياد الأوساط المشبوهة!..

وهذا هو الجانب السيئ، ولكنه لا يجب أن يخفي عن أعيننا الإمكانيات الأخلاقية المحددة التي تحملها المراهقة، فإن الحياة الأخلاقية للطفل لم تكن إلا انعكاساً لتأثير الوسط الأسري والمدرسي على سلوكه. ولكن بعد البلوغ، لا يكتفي الفرد الذي يتطلع إلى العالم والكائنات بمنظار جديد، "بالعادات الطيبة" التي كانت تثبت فيه، إذ تبدو له قليلة الشأن ناقصة إذا ما قيست برغبته في الكمال والمطلق، لذلك تعرض كل صعوبة يلتقي بها لنوع من الافتتان، فهو يهوى المجد والخلود، ويحس في الرغبة في التفوق على نفسه، ولا تفلت القيم الأخلاقية من نفس هذا القانون الذي تخضع له حياة المراهق الفكرية، فيتجه بغريزته إلى أكثر هذه القيم سمواً حتى تكاد الأخلاق أن تصبح في نظره نوعاً من الرياضة التي تتيح له فرصة الشعور بالقوة والإرادة. ويتفق كل من المثال الجمالي والمثال الأخلاقي عند الشباب، وهو ملح ومنظم، غير وثيق التماسك دائماً، ولكنه ليس أقل ما يثير فينا الدهشة في سن يفيض بالمفاجآت. وفي المراهقة، تبدو الأخلاق كارتباط كامل لا كمجموعة من المبادئ. والواجب كحقيقة مادية لا كتجريد فلسفي. وليست الأخلاق خضوعاً لأي من الأخلاقيات الاجتماعية، بل هي محاولة لرفعة الفرد كله ولا يقبل الشباب على الحكمة التي يرونها غير ذات بال ولا تجدر إلا بالشيوخ: كما أنهم يحلمون مثل إيمرسون، في

ربط عجلة حياتهم بالنجوم، وما أشقى وأتعس المربى الذي يتغاضى عن الإفادة من هذه الطاقة عند الشباب!.

وتمتاز قيم الحياة الأخلاقية عند الشباب، أي فضائله، عن قيم البالغين حتى ولو كانت تحمل نفس أسمائها، فيرى الشباب في التضامن إخلاصاً، وفي الطيبة إشفاقاً، وفي الرحمة التي كانت يصعب على الطفل ممارستها نوعاً من الخلق البطولي. وهناك قيم يفضلها المراهقون عادة: مثل الشرف وهو الطرف البراق للعزة الشخصية، والإخلاص العميق، والشجاعة التي تبلغ حد التضحية من أجل قضية يخدمونها، وكل هذه ميزات تهيئ السبيل- كما نرى- لتفتح الإمكانيات الفردية وازدهارها.

القيم الميتافيزيقية والدينية: وإلى جانب المثال الأخلاقي ، تكتشف المراهقة القيم الميتافيزيقية التي غالباً ما تكون مختلطة به، وتتقمصها ، فيولع الطلبة الشبان بمناهج الفكر التي تحاول إيجاد تفسير معقول للكون وكذلك جواب لكل المشكلات التي يقيمها القدر الإنساني. ويتفق هذا السعى مع حاجتهم الملحة إلى سبر غور الأشياء بما يتجاوز مجرد التجربة المحسوسة، وذلك بفضل القوة غير المحدودة التي ينسبونها للعقل. ونحن نعرف أن أوجست لوكونت كان يجعل من المراهقة، في قانونه عن الحالات الثلاث. سن الميتافيزيقا. ولا شك أن قلة هم الذين يستسلمون للتأمل في السببية والحتمية والمادة أو السبب الأول. ولا يقوى جميع المراهقين هزة الميتافيزيقا إذا ما واجهوا سراً من الأسرار، ولكن عدداً كبيراً منهم يحسون أمام مشكلات الكون وإزاء حياتهم

الخاصة بذلك "القلق" الذي يعتبر طريقاً آخراً مؤدياً إلى الميتافيزيقا.

ومن العسير أن نفضل تماماً، في تفكير المراهق، بين مجال الميتافيزيقا والمجال الديني الذي تتجمع فيه كل القيم الروحية.

ويبدو أن علماء النفس قد اتفقوا على اعتبار أزمة البلوغ كانتفاضة مفاجئة للشعور الديني، إذ يلاحظ الاتجاه للتدين حتى عند الأفراد الذين كانوا فيما مضى لا يبالون بمشكلة الإيمان والذين يعودون إلى لامبالاتهم في سن النضوج. وتقع هذه النزعة الدينية- كما يقول ستانلي هل- في حوالي سن السادسة عشرة. ويمكن اعتبار "الدخول في الدين" عند حدوثه، كما لو كان صورة مركزة ومختصرة لنمو الشخصية، فهو يسمح للمراهق الذي تتنازعه القوى المتعارضة أن يعثر على وحدته وسبب وجوده في الله، وكذلك أن يشبع حاجته الجامحة للحب والكمال والتفسير. وهكذا يكفيه الله مؤونة القلق الداخلي ويعاونه على الدخول في إطار الحياة العامة. وهكذا تنتظم قيم الحياة في تسلسل بالنسبة لقيمة عليا.

أما بالنسبة للذين لم يتلقوا تعليماً دينياً خلال طفولتهم، فلا توجد مثل هذه الحركة المفاجئة، بل يقوى حب الله ويبتعد أكثر فأكثر عن عاطفة البنوة التي كانت تدخل معه في علاقات وثيقة خلال السنوات الأولى من الحياة. كما يرى بوفيه p.Bovet ، ويأخذ شكل حاجة إلى التدين تصاحبها عند الفتاة عادة نزعات صوفية، وفي هذه اللحظة بالذات يتحدد الميل إلى المهن الدينية.

ولكن كثيراً ما يمر إيمان الشباب بأزمات متعاقبة عندما يتعارض السلوك والقيم التي اكتشفت حديثاً، وهذا ما يحدث عندما تصطدم القيم الدينية ببعض القيم الاجتماعية التي تستهوى الكرامة، أو عندما تثور الرغبات الجسدية على قواعد الأخلاق الدينية، فيخشى على الإيمان من الهزيمة أمام الشهوات التي تنطلق من عقالها. وفي مجال الفكر، يسعى المراهق للتوفيق بين معتقداته ومعلوماته، وغالباً ما تظهر نوبة من الشك في حوالي سن السابعة أو الثامنة عشرة ، خاصة عند الطلبة، عندما يبدو لهم التناقض بين العقيدة وبعض نتائج العلم أو بعض وقائع الحياة اليومية، وذلك عن طريق التفكير النقدي... وقد لاحظ بعض علماء النفس من حدوث هذه النوبات عندما تكون التربية الدينية لا تزال في بدايتها، فتكون بذلك أشبه بالثوب الذي يتخلص منه الإنسان عندما يجده معيقاً له. ومن المؤكد أيضاً أن هذه النوبات تحدث في حالات أخرى، ويخرج منها الشباب وقد ضاع إيمانهم أو قوى بالتجربة، بينما يحتفظ البعض لنفسه بدين شخصي بعيد إلى حد ما عن العقيدة الصحيحة. ويمارس الاتصال بالقيم الدينية دائماً تأثيراً عميقاً على تكوين الشخصية وذلك بإرغامها على تحديد معالمها بما يتفق والعالم الخارجي.

من الأنا إلى الشخصية: ونلاحظ الآن جيداً التقدم الأساسي الذي يتحقق خلال المراهقة في مجال الشخصية.

1- يتكشف إحساس الفرد بذاته بالتفكير وأحياناً يشتد هذا الإحساس في فترات معينة.

2- تنفذ إليه الشخصية الاجتماعية من خلال المشكلات التي سبق لنا تحليلها.

3- يسمح السعي إلى قيم الحياة للشخصية بتحديد مكانها بالنسبة لهذه القيم وتنظيمها في جهاز متماسك. وهكذا نصل إلى المبدأ الأخلاقي "للشخصية" ، ويقوم على الذات، وتعبر عنه الشخصية الاجتماعية، وأخيراً ينتسب إلى حقيقة عليا أسمى منه.

وكذلك نلم بالدور الرئيسي للقوى الروحية في هذا العمل البناء. فيوجد بين اللحظة التي يحس فيها المراهق بقيمته الذاتية واللحظة التي ستتولى عليه فيما قيم اجتماعية قليلة الشأن أحياناً. فترة من الوقت يجب حمايتها واستثمارها، وهي الفترة التي يتم فيها السعي وراء قيم جمالية أو أخلاقية أو دينية تسمح لشخصية الشاب باكتساب أهميتها وسموها. وبفضل هذه القيم، يميل التعارض بين الفرد والمجتمع إلى التلاشي، إذ يجد كل منهما نفسه تحت سيطرة قيم أكثر رفعة.

وتتغير هوية الشباب الإنساني الذي تحددت معالمه تبعاً لهوية القيم التي تحيط به. فأي القيم يختار؟ وما مدى الأهمية التي يعطيها لكل منها؟ تلك هي الأسئلة الرئيسية، الأسئلة الملحة التي تواجهها الأيديولوجية المختلفة، ولن أتورط في اختيار يقع جزء منه على عاتق

المربى وحده. ولكن مهما كانت القيم التي نفرضها على الشباب، علينا أن نراعى اتفاقها وميوله، فلتكن هناك "مثاليه" تدعوه للحماس وللجهد الشخصي والإخلاص ، مستعينة في ذلك بطاقته للحب، حب الشرف والواجب والجمال والله، فهذه طريقة تحمل بها كل قيم الحياة إلى أسمى مستوياتها. ولكن بينما نحن نرشد الشباب إلى هذا الطريق، علينا أن نذكر إمكانياته: فإن المثالية التي تفوق طاقة البشر تفقده القدرة على السعي، كما أن الجهود العنيفة تؤدي إلى الفشل الذريع الذي يثخنه بالجراح أو يفت من عزمه، ولكن التمرين المعنوي مثل التمرين المادي، يجب أن يكون تدريجياً ومحدوداً.

ومن بين "منهلى الأخلاق والدين" اللذين تعرف عليهما برجسون ، ينهل الشباب أولاً من "الأخلاق المفتوحة" ، لا الأخلاق الاجتماعية، ويضطربون في سن الخامسة عشرة أو السابعة عشرة بنداء كل ما هو مقدس أو بطولي، ويودون لو أعادوا بناء العالم، والتخلص من الشر، ونشر العدالة المطلقة. وعلينا ألا نبتسم أو أن نغضب، فقد تفتح السماء أبوابها مستجيبة لهؤلاء الذين يسيرون وقد رفعوا أعينهم نحو القمة.